الدرس الحادي عشر

تمت القسمة الرباعية لمقامات الناس في أمر الاستعانة والعبادة، وتبين أن أعلى هذه المقامات: أن يجمع الإنسان بين الاستعانة والعبادة كما قال الله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين} [الفاتحة:٥]، فلا غنى للعبد عن الاستعانة بالله تعالى في جميع أموره الدينية والدنيوية، ففي أموره الدينية يحتاج من الله تعالى إلى أن يشرح صدره لعبادته وأن يمده بالقوة والنشاط على امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وفي أموره الدنيوية يحتاج إلى أن يمده بالقوة والسداد في قضاء حوائجه وتسهيل أموره.

وعلى النقيض من ذلك أصحاب المقام المضاد: وهم الذين استغنوا عن عبادة الله وعن الاستعانة به، فذلك شر حال، فهم لا يعبدون الله ﷻ ولا يستعينون به، وإن هم استعانوا به فإنهم يستعينون به لمطلوب دنيوي، وقد يمدهم الله ﷻ استدراجا لهم، وقد يخذلهم عقوبة لهم.

والطائفة الثالثة: الذين لهم نوع عبادة ولا استعانة لهم، وقد جعلهم المصنف على نوعين، أحدهما: المعتزلة من القدرية، وهم الذين يتكلون في امتثال أمر الله واجتناب نهيه على قواهم الطبيعية، ويقصرون قدر الله تعالى على اللطف وهو أن يمدهم الله فقط بالآلات والقوى التي تمكنهم من الفعل، وأما ذات أفعالهم فإنه لا شأن له بها ولا قدر سابق يتعلق بها.

والصنف الآخر: الجبرية من أصحاب الأوراد والأذكار الصوفية الذين يعبدون الله تعالى لكن مستصحبين أن ما يصدر منهم يصدر بنوع تسيير، ولذلك فلا يتحقق عندهم استعانة بالله تعالى.

الطائفة الرابعة: الذين لهم استعانة بلا عبادة، فهؤلاء لا يريدون إلا الدنيا فقط، فلا يؤتيهم الله تعالى إلا ما شاء الله سألوا وما لهم في الآخرة من نصيب، فليحرص المؤمن أن يجمع بين هذين المقامين. العبادة والاستعانة.

(المتن)

واعلم أن العبد لا يكون متحققًا بعبادة الله – تعالى – إلاّ بأصلين:

أحدهما: متابعة الرّسول صلى الله عليه وسلم.

والثاني: إخلاص العبودية.

والنّاس في هذين الأصلين على أربعة أقسام:

(الشرح)

كان الأولى أن يبتدئ المؤلف –رحمه الله– بالإخلاص ويثني بالمتابعة، موافقةً لترتيب الشهادتين، فإن مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله: إخلاص العبودية لله، ومقتضى شهادة أن محمدا رسول الله متابعته .ﷺ

(المتن)

الأول: أهل الإخلاص والمتابعة: فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم ومنعهم وإعطاؤهم وحبّهم وبغضهم كل ذلك لله – تعالى –، لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكورًا، عدّوا النّاس كأصحاب القبور، لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. فإنه لا يعامل أحدًا من الخلق إلاّ لجهله بالله وجهله بالخلق.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

والإخلاص هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل عملاً صوابًا عاريًا منه، وهو الذي ألزم عباده به إلى الموت، قال الله – تعالى –: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [النبأ:٢]، وقال: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الكهف:٧]، وأحسن العمل: أخلصه وأصوبه.

فالخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على وفق سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا هو العمل الصالح المذكور في قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً} [الكهف:١١٠]، وهو العمل الصالح في قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} [النساء:١٢٥]، وهو الذي أمر به النّبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)[1]، وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد عامله إلاّ بعدًا من الله – تعالى –، فإن الله – تعالى – إنما يعبد بأمره، لا بالأهواء والآراء.

(الشرح)

لا يقبل الله تعالى عملا إلا بتحقق هذين الشرطين وهما الإخلاص لله تعالى والمتابعة، فإنها ما من عمل يعمل إلا وينشر له ديوانان، ديوان لَمَ، وديوان كيف؟، لَمَ؟ أي لَمَ عملت هذا العمل؟ وكيف: كيف عملت هذا العمل، فلمَ لبيان القصد، وكيف لبيان الكيفية، فينبغي للإنسان أن يتحقق من هذين الأمرين ويحضر جواب السؤالين.

(المتن)

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة له، وهؤلاء شرار الخلق، وهم المتزينون بأعمال الخير، يراءون بها النّاس، وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة، فإنهم يرتكبون البدع والضلال والرّياء والسّمعة، ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا. وفي أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى: {لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران:١٨٨].

(الشرح)

الفقر يقصد بالفقر التصوف ويقصد بالعبادة هنا والضلال والرّياء والسّمعة، فهؤلاء خسروا في الدنيا والآخرة عياذا بالله، فلا يجنون إلا النتائج المرة، ولا يحصل لهم مرادهم في الدنيا ولا يحصل لهم ثواب في الآخرة.

(المتن)

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العباد، والمنتسبين إلى الزّهد والفقر، وكل من عبد الله على غير مراده، والشأن ليس في عبادة الله فقط، بل في عبادة الله كما أراد الله، ومنهم من يمكث في خلواته تاركًا للجمعة، ويرى ذلك قربة، ويرى مواصلة صوم النّهار والقيام بالليل قربة، وصيام يوم الفطر قربة، وأمثال ذلك.

(1) أخرجه مسلم- (١٧١٨)، وأخرجه البخاري معلقا بَابُ النَّجْشِ، وَمَنْ قَالَ: «لاَ يَجُوزُ ذَلِكَ البَيْعُ» (٣/ ٦٩).

(الشرح)

هؤلاء أتوا من جهة الجهل وترك المتابعة، فقد لا يعوزهم إخلاص، وليسوا من أهل الرياء وإنما يريدون العبادة، ولكنهم ضلوا الطريق كما ضل رهبان النصارى الذين قال الله تعالى عنهم: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ} [الحديد:٢٧]، فهؤلاء يشابهونهم، ولذلك كان من ضل من علمائنا فيه شبه من اليهود، ومن ضل من عبادنا ففيه شبه من النصارى، كما قال بعض السلف.

(المتن)

الضرب الرّابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله – تعالى –، كطاعات المرائين. وكالرّجل قاتل رياءً وسمعةً وحمّيةً وشجاعةً وللمغنم، ويحجّ ليقال، ويقرأ ليقال، ويعلّم ويؤلف ليقال، فهذه أعمال صالحة لكنها غير مقبولةٍ، قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} [البينة:٥]، فلم يأمر النّاس إلاّ بالعبادة على المتابعة والإخلاص فيها.

والقائم بهما هم أهل: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥].

(الشرح)

خلاصة هذا الفصل أن على السائر إلى الله تعالى أن يعتني بتحقيق هذين المقامين: الإخلاص لله تعالى وذلك بأن يمر على قلبه النصوص الواردة في عبادة الرب ﷻ والنصوص الواردة في التخويف من الرياء والنفاق والمتابعة للرسول بأن يتفقه في الدين ليعرف كيف يعبد الله ﷻ على بصيرة، فدوام إمرار ذلك على القلب وحمل النفس عليه ومحاسبتها يؤهل العبد بإذن الله تعالى إلى التحقق بحسن العبادة، الذي أمر الله ﷻ به، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: (يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: " أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)[1]، لم يقل وكثرة عبادتك، وهو جامع لهذين الوصفين الإخلاص والمتابعة.

(المتن)

ثم أهل مقام: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقّها بالإيثار والتخصيص، أربعة طرق، وهم في ذلك أربعة أصناف:

(الشرح)

هذا ما، يسميه بعض المصنفين بالسلوك، فجعلهم أربعة أصناف، والتقسيمات تعين طالب العلم على تصور مسائل العلم.

(المتن)

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النّفوس وأصعبها، قالوا: لأنه أبعد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التّعبّد، والأجر على قدر المشقّة، ورووا حديثا ليس له أصل: "أفضل الأعمال أحمزها" أي: أصعبها وأشقّها.

(١) أخرجه أبو داود- (١٥٢٢)، وأحمد- (٢٢١١٧).

وهؤلاء هم أرباب المجاهدات، والجور على النّفوس، قالوا: وإنما تستقيم النّفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الرّاحة، فلا تستقيم إلاّ بركوب الأهوال، وتحمّل المشاق.

(الشرح)

هذا الصنف فيه نزعة من نسك أعجمي، فإن الديانات الوثنية الشرقية كالهندوسية والبوذية وما شابهها تترع نحو تعذيب الجسد لاعتاق الروح، وتزعم أن الروح لا تنطلق إلا بإيلام الجسد، فلا شك أن هؤلاء تأثروا بهذه الفلسفات المشرقية التي تسربت إلى أهل الإسلام، كما قال الله تعالى: {يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ} [التوبة:٣٠]، وهذا نوع مضاهاة، وإنما أُتي هؤلاء من مجافاتهم للسنة وزهدهم في الآثار واتباعهم طرائق الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل.

فليس صوابا أن يتقصد الإنسان فعل المشاق لتحقيق العبادة، بل كان نبينا ﷺ يحب اليسر في الأمر كله، حتى إن الله تعالى امتن عليه وقال: {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} [الأعلى:٨]، فكان طبعه اليسر وشريعته اليسر واختياره اليسر، كان ميسرا ﷺ في جميع أموره، يكره التكلف، {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص:٨٦].

وكان ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، وكان ﷺ يرتفق بما يرتفق به بنو آدم، فهو يشرب الماء البارد ويأكل اللحم والحلوى، وكان يستظل عن الشمس، ويستحم وهو محرم ويفعل الأمور الموافقة للطبيعة البشرية، ويحب الطيب والنساء، كما قال: (حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)[1].

فهو موافق لطبيعته التي خلقه الله تعالى عليها، وفطرته الإنسانية، إلا أن يمس ذلك شيئا من محارم الله فيكون أبعد الناس عن محارمه، وإنما يكون الأجر على قدر المشقة حينما تكون المشقة وقعت تبعا لا قصدا، كما قال النبي ﷺ لعائشة- رضي الله عنها-: (أجرك عَلَى قَدْرِ عَنَائِكِ وَنَصَبِكِ)[2].

وفرق بين من يبحث عن المشقة ليحصل الأجر وبين من يفعل العبادة فيقع له مشقة فيثاب على هذه المشقة، فالمشقة ليست مقصودة لذاتها، وإنما المقصود فعل العبادة، فإن وقعت له بيسر فليحمد الله، وإن صاحبها نوع مشقة فليحتسب على الله تعالى ما ناله من المشقة.

(المتن)

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات وأنفعها: التّجرّد والزّهد في الدّنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، وإطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث لما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامّهم: ظنّوا أن هذا غاية، فشمّروا إليه وعملوا عليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، ورأوا الزّهد في الدّنيا غاية كل عبادة ورأسها.

---

(١) أخرجه أحمد- (١٢٢٩٤).

(٢)البيهقي في سننه الكبير (٨٧٣٤) بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (١٧٨٧)، ومسلم (١٢١١)، بلفظ (وَلَكِنَّهَا عَلَى قَدْرِ نَفَقَتِكِ أَوْ نَصَبِكِ).

وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله – تعالى –، والاستغراق في محبّته، والإنابة إليه، والتّوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أفضل العبادات: دوام ذكره بالقلب واللسان.

(الشرح)

الزهد في الدنيا محمود، ولهذا قال نبينا ﷺ: (ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ)[1]، وحقيقة الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، وأما الورع فإنه ترك ما يضر في الآخرة، كاتقاء الشبهات، فالزهد أعلى من الورع.

لكن من هؤلاء الزاهدين من ظن أن هذا هو الغاية فشغله ذلك عن الاشتغال بالطاعات كالعلم والعبادة، وصار همه المقيم المقعد أن يتخفف من الدنيا فيلبس الأسمال، يعيش في الأماكن المتضعة ونحو ذلك، فجعل هذا الزهد غاية.

وأما الخواص فرأوا أن الزهد قبل أن يكون في المظهر يكون في المخبر، فسافرت قلوبهم إلى الله ﷻ وعكفت في محرابه واستغرقوا في محبته سبحانه ورأوا أن أفضل العبادة دوام ذكره بالقلب واللسان.

(المتن)

ثمّ هؤلاء قسمان:

فالعارفون: إذا جاء الأمر والنّهي بادروا إليه، ولو فرّقهم وأذهب جمعيتهم.

والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من القلب جمعيّته، فإذا جاء ما يصرفه عن الله لم يلتفتوا إليه، ويقولون:

يطالب بالأوراد من كان غافلاً ... فكيف بقلب كل أوقاته ورد.

(الشرح)

في بعض النسخ وقع: فإذا جاء ما يعرفه عن الله، والصواب: فإذا جاء ما يصرفه عن الله لم يلتفت إليه.

فالعارفون منهم إذا جاء الأمر والنهي، انفكوا عن هذه الجمعية، والجمعية مصطلح يستعمله بعض المتأخرين يقصدون به اجتماع القلب على الله ﷻ، فهم يحاولون دوما جمع القلب و لم شتاته على استحضار الإيمان بالله تعالى وقيام المعارف الإيمانية فيه.

فهؤلاء إذا جاءهم الأمر والنهي كأداء الصلاة والحج وبر الوالدين وغير ذلك قدموا الأمر والنهي حتى لو تفرقت عليهم جمعيتهم التي يحرصون على تحقيقها، وأما المنحرفون منهم فإنهم يقدمون جمعية القلب، فإذا جاء ما يصرفه من التكاليف لم يلتفتوا إليها.

(المتن)

([1]) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢).